

مختصر معجم معالم مكة التاريخية (٢)

عاتق بن غيث البلادي

الحِثْمَة:

بثلاث فتحات، هي حِثْمَة عمر بن الخطاب، كانت من ربيع رهطة بني عدي بن كعب، وكان يقول:

إن الذي أخرجني من الحِثْمَة لقادر على أن يسوقها إليّ. أي الشهادة.
والحِثْمَة - جغرافياً - أكمة صخرية قابلة للتفتت. وكانت هذه الحِثْمَة بسفح جبل عُمر مما يلي الشبيكة فغشيها العمران، وهي اليوم لصق جسر الشبيكة من مغيب الشمس، وفيها يقول خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة، ويقال الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة:

لنساء بين الحُجُون إلى الحِثْمِ - حِثْمَة في ليال مقمرات وشرق
ساكنات البطاح أشهى إلى القلب - من الساكنات دور دمشق
يضمخن بالعنبر والمسك - ضاماً كأنه ريح مرق

ويروي الأصفهاني، قصة هذا الشعر فيقول: (١)

بلغني أن الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة، ويقال: بل خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة، كان تزوج حميدة بنت النعمان بن بشير بدمشق لما قدم على عبد الملك بن مروان، فقالت فيه:

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحة غاوية
كهول دمشق وشبانها أحب إلينا من الجالية
صنان لهم كصنان التيو س أعياء على المسك والغالية
فقال الحارث يجيبها:

قاطنات الحجون أشهى إلى قلـ بي من ساكنات دور دمشق
من قصيدة طويلة، وله أشعار أخرى في تشوقه إلى مكة. وكذلك ظلت خزاعة تلي البيت خمسمائة سنة إلى أن أفسدت فأزاحها قُصي بن كلاب، فوليتها قريش وعمرتها، فلما أفسدت في الحرم بما وضعت فيه من أصنام، وغيرت ما تبقى من ملة إبراهيم، أرسل الله محمداً (ﷺ) بدين الحق، وبدل الله مكة خيراً وجعلها قبلة الدنيا.

وقصيدة مضاى هذه، قبل البعثة النبوية بما يقرب من ٧٠٠ سنة، وهي من الجودة بحيث جاءت في قمة النضوج مما يدل على أن عمر الشعر العربي قبل البعثة بأمد مديد، أما قول المستشرقين بأن الشعر العربي بدأ قبل الرسالة بزمن قصير نسبياً، فهو من تخميناتهم الكثيرة، وأما تشكيكهم في كل شعر ذي زمن عميق كشعر مضاى، فإننا لو اتخذنا التشكيل معياراً ومذهباً لألغينا جلّ تراثنا. هذا استطراد أملته سيرة مضاى بن عمرو.

وقال أبو طالب عم النبي (ﷺ): (٢)

جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا على ملاء يهدي الحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم مقاوله بل هم أعز وأمجد



ويقول كثير بن كثير - بفتح الكاف - السهمي: (٣)

كم بذاك الحُجُون من حيِّ صدق من كهولٍ أعفَّةٍ وشباب
فارقوا وقد علمت يقيناً ما لمن ذاق ميتةً من إياب
وقال أبو ذؤيب الهذلي: (٤)

ألكني إليها وخيرُ الرسد لـ أعلمهم بنواحي الخبر
باية ما وقفْتُ والركا بـ بين الحُجُون وبين السرر
وقال النسيب: (٥)

لا أنساك ما أرسى ثبيرٌ مكانه وما دام جاراً للحُجُون المُصَّب
يتضوَّعَن لو تَضَمَّنَ بالمسد كـ صناناً كأنه ريجٌ مرق
وقد رأيت من تحمل وفسر هذا الشعر، ففسر (المرق) بأنه نوع من العطور.
والعرب تعرف المرق وقبح ريحه في الثياب، خاصة أن الموقف كان موقف سباب
ومعايرة.
وهذان حجازيان تقدم أحدهما فقطن الشام، وعدَّ اللاحق جالية أي
غريباً!

الحُجُون:

بضم الحاء المهملة والجيم على التوالي .. والعامية اليوم تقول: الحُجُول،
بإبدال النون لاماً، وذلك لقرب مخارج الحروف.
كانت جرهم سادة البيت فبعوا وفسقوا فيه فثارت الحرب بينهم وبين
خُزاعة فأجلتهم خزاعة إلى اليمن، فضلت إبل لمُضاض بن عمرو الجرهمي ملك
جرهم، فتابع أثرها حتى أشرف على وادي مكة، فإذا بإبله تنحر وتطبخ، فأنشأ
مُضاض يقول:

كأن لم يكن بين الحُجُونِ إلى الصِّفا
ولم يتربّع واسطاً فجُنُوبه
بلى! نحن كُنَّا أهلها فأزالنا
وبدّلنا ربِّي بها دار غُرْبَة
فإن تمل الدنيا علينا بكلِّها
فكُنَّا ولاةَ البيتِ من بعد نابتِ
كل هذه الأقوال لشعراء عبروا عن الحجون، فأين الحجون؟ المعروف
اليوم ربيع الحجون وتقول العامة: الحجول كما قدمنا، ولكن هذا الربيع ما كان
يسمى الحجون في عهد أولئك الشعراء، بل كان يسمى كداء وهو الذي يقول فيه
حسان بن ثابت، يخاطب مشركي قريش:

عدمتم خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

ولم يتعمق جغرافيو المتقدمين في تحديد الحجون، ولعل ذلك لبعدهم عن
مكة. ومن شاهدها منهم شاهدها مشاهدة الزائر الغريب، وما ستأتي به
مشاهدات غريب؟ إن لم يكن له من أهل البلد راوية ومرشد. وعندما قام
الأستاذ رشدي ملحس بتحقيق أخبار مكة، تأليف محمد الأزرق، توهم أن
الحجون حجونان: أحدهما جاهلي، والآخر إسلامي، ولا أرى ذلك. بل إن لدينا
نصوصاً من أهمها نصّ الأزرق نفسه، على أن الحجون هو الجبل الذي يمتد من
ربيع الحجون اليوم مشرقاً بشمال، ويكون وجهه الشرقي جبل أذاخر الذي
يشرف على ثنية أذاخر التي تفضي على الحُرمانية (حائط خرمان) وهي الثنية
التي دخل منها رسول الله (ﷺ) يوم الفتح، فإذاً جبل الحجون هو ذلك الجبل
الذي تقع مقبرة أهل مكة القديمة بسفحه من الجنوب الغربي، وفي هذه المقبرة قبر
خديجة رضي الله عنها.



وقفه: هذه الوقفة مع شعر مضاض بن عمرو الجرهمي المتقدم. فقبل مدة ألقى أحد الأساتذة الكرام محاضرة كرر فيها أن عمر الشعر العربي لا يزيد عن (٢٠٠) سنة! قبل البعثة النبوية على أكثر تقدير. ويقول هذا المحاضر (وعساه يعي ما يقول) وكان ذروة مجد الشعر ذلك البيان الذي نجده في القرآن! لما تركته المعلقات من مفردات راقية، أي أن بلاغة القرآن - على حدّ تعبير هذا المحاضر - ما كانت لتصل إلى هذا المستوى لو لم يترق الشعر! ولن تناقش هذا الزعم الباطل يقيناً. إنما الذي نريد أن تناقشه قوله: إن أول من هلهل الشعر وهو المهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس، فأورثه شعره وعلى يد امرئ القيس سما الشعر. أهـ.

قلت: هذا منحى نحاه بعض المتقدمين عليه السلام كقولهم: فتح الشعر بأمر وختم بأمر. أي فتح بامرئ القيس وختم بأبي فراس الحمداني، ولا زال الشعر حياً يغنى رغم القرون التي مرّت على موت أبي فراس. وكانوا يجادلون في من هو أشعر الناس. ولكنهم كانوا يقصدون أشعر الناس في زمانهم. وحتى بعض المتأخرين قال: ختم الشعر بشوقي ولم يختم بعد. والمهم في موضوعنا المقارنة بين زمن مضاض والمهلهل.

فالمصادر تقول: إن المهلهل عاش نحو (٥٧٠) م أي قبل الهجرة بخمسين سنة. ومضاض قبل الهجرة بسبعائة سنة تقريباً، ذلك أن خزاعة وليت البيت بعد جرهم خمسمائة سنة، وبين قُصَيِّ وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمائتي سنة، كل هذا بالتقريب. وهذا شعر مضاض أمامنا من شعر البلدانيات والتشوق الجيد، وهو بالتأكيد ليس بدعاً عليه بل نتيجة مسيرة طويلة.

ولجرهم شعر آخر:

لَهُمْ إِنْ جُرْهُمًا عِبَادُكَ النَّاسَ طَرْفٌ وَهُمْو تَلَادُكَ
فإلى أخي ذلك المحاضر الذي تكرم وأرسل إليّ نسخة من المحاضرة وإلى

كلّ الدارسين لأدبنا نقول: التروي والبحث العميق قبل إصدار الحكم ﴿وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلاً﴾.

حِراء:

بكسر أوله وفتح ثانيه مع المد، من أشهر جبال مكة بل أشهرها على الإطلاق: جبل يقع في شرقي مكة إلى الشمال، فيه الغار الذي كان يتعبد فيه رسول الله (ﷺ). وفيه نزلت على رسول الله (ﷺ): ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علّم بالقلم﴾ (٦).

وكانت النبوة التي عمّ البشرية نورها ووسعهم عدلها وشغلتهم بركتها، فلا يحرم منها، إلا شقيّ. وله تأريخ طويل وأقوال للمتقدمين فيه لغوية وتأريخية (أنظر معجم معالم الحجاز) وقد أكثر المتأخرون من ذكره في أشعارهم، فقد أصبح رمزاً للهداية والإلهام، أما ذكره في الشعر القديم فمنه قول عوف بن الأحوص:

فإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حِراء

وكتبنا في معجم معالم الحجاز:

حِراء: هو الجبل الشاخ ذو الرأس الأزج المقابل لِثَبِير الأَثْبَرَة من الشمال، بينها وادي أفاعية، يأخذه (أفاعية) الطريق من مكة إلى الشرق ماراً باليمانية.

فيه الغار الذي كان يتعبد فيه (ﷺ) وفيه نزلت عليه أول سورة من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق﴾ وكان يسمى ثبيراً الأعرج، ويسمى اليوم جبل النور، يسيل منه إلى الغرب وادي جليل، وقد وصل اليوم عمران مكة إلى سفوحه الغربية. يرتفع حِراء (٢٠٠م) عن سطح البحر، وبسفحه الجنوبي آثار عين الزعفران، وهي من العيون التي أجرتها زُبَيْدَة إلى مكة، ثم انقطعت.



وقال ياقوت:

بالكسر، والتخفيف والمد: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال، وهو معروف، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه، قال جرير:

ألسنا أكرم الثقلين طراً وأعظمهم بيطن حراء نارا؟

فلا يصرفه لأنه ذهب به إلى البلدة التي حراء بها، وقال بعضهم: للناس فيه ثلاث لغات: يفتحون حاءه وهي مكسورة، ويقصرون ألفه وهي ممدودة، ويميلونها وهي لا تسوغ فيها الإمالة، لأن الراء سبقت الألف ممدودة مفتوحة وهي حرف مكرّر فقامت مقام الحرف المستعلي مثل راشد ورافع فلا تمال؛ وكان النبي (ﷺ) قبل أن يأتيه الوحي يتعبد في غار من هذا الجبل، وفيه أتاه جبريل (عليه السلام)؛ وقال عزام بن الأصبع: ومن جبال مكة ثبير، وهو جبل شامخ يقابل حراء، وهو جبل شامخ أرفع من ثبير في أعلاه قلّة شامخة زلوج، ذكروا أن رسول الله (ﷺ) ارتقى ذروته ومعه نفر من أصحابه فتحرك، فقال رسول الله (ﷺ): اسكن يا حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؛ وليس بهما نبات ولا في جميع جبال مكة إلا شيء يسير من الضمياء يكون في الجبل الشامخ، وليس في شيء منها ماء، ويلها جبال عرفات، ويتصل بها جبال الطائف، وفيها مياه كثيرة. وقال البكري: حراء: بكسر أوله ممدود على وزن فعال: جبل بمكة. قال الأصمعي: بعضهم يذكره ويصرفه، وبعضهم يؤنثه ولا يصرفه؛ قال عوف بن الأحوص في تأنيثه:

فإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء
وأنشد الفراء:

ألسنا أكرم الثقلين رحلاً وأعظمهم بيطن حراء نارا؟

قال ابن الأنباري: إنما لم يجر حراء لأنه جعله اسماً لما حول الجبل، فكأنه

اسم لمدينة، وأنشد لابن هزيمة:

وخلئتُ حراءَ من ربيعٍ وصيفٍ نعامة رحلٍ وافراً ومقرنصا
واجراها لضرورة الشعر. وقال أبو حاتم: التذكير في حراء أعرف
الوجهين. وذكر الحديث السابق مع اختلاف في اللفظ.
وقال رؤبة: ورب وجهٍ من حراءٍ منحن.
قال الأصمعي: لم أره منحنياً. قال المؤلف: أمّا قول عرام: أرفع من ثبير.
فهو خطأ تظهره المشاهدة، وقلة حراء فيها شيء من الانحناء.

الحزورة:

قال الأزرقى: (٧) الحزورة وهي كانت سوق مكة، كانت بفناء دار أم هاني
ابنة أبي طالب التي كانت عند الحناتين (٨)، فدخلت في المسجد الحرام، كانت في
أصل المنارة إلى الحثمة والحزاور والجبابج الأسواق، وقال بعض المكيين: بل
كانت الحزورة في موضع السقاية التي عملت الحيزران بفناء دار الأرقم؛ وقال
بعضهم: كانت بجذاء الردم في الوادي، والأولى أنها كانت عند الحناتين أثبت
وأشهر عند أهل مكة. وروى سفيان عن ابن شهاب قال: قال رسول الله (ﷺ)
وهو بالحزورة: أما والله إنك لأحب البلاد إلى الله - سبحانه - ولولا أن أهلك
أخرجوني منك ما خرجت. قال سفيان، وقد دخلت الحزورة في المسجد الحرام
وفي الحزورة يقول الجرهمي:

بدأها قوم أشحاء أشدّة على ما بهم يشرونها بالحزاور
وقال أبو عبيد البكري:

الحزورة: موضع بمكة يلي البيت، وفيه دفن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد
الله، ابن أخي طلحة بن عبيد الله وكان قُتِلَ مع ابن الزبير، فلما زيد في المسجد



الحرام دخل قبره في المسجد، ذكر ذلك الزبير بن أبي بكر.
وقال الغنوي:

يوم ابن جُدعان بجنب الحزوره كأنه قيصر أو ذو الدسكرة
روى الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن عبد الله بن عدي
بن حمراء الزهري أخبره، أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول وهو واقف بالحزورة في
سوق مكة (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أخرجتُ
منك ما خرجت).

قلت: ولذا احتج الشافعي، بأن مكة أفضل البلدان على الإطلاق.
ولذا يتعين أن موضع الحزورة هو داخل الركن الشمالي الغربي من المسجد
الحرام، قبل التوسعة العثمانية، أي أنها الآن في طرف الصحن مما يلي ذلك الركن.

الخطم:

بفتح الحاء المعجمة وضم الطاء المهملة: هو ما يسميه عرب اليوم الخشم،
وهو النصف المنقاد من الجبل إلى الأرض، وبمكة خطمان: أحدهما خطم الحُجُون،
وهو ما حازت مقبرة أهل مكة باتجاه أذاخر. وعن يمين الأبطح.

وفي هذا يقول الحارث بن خالد: (٩)

أقوى من آل فطيمة الحزم فالعيرتان فأوحش الخطم
وهذا هو الذي يقع في سفحه حي الجعفرية الممتد من مقبرة أهل مكة
القديمة إلى شعب أذاخر اليماني، وله شاهد في الحجون.
والخطم الآخر يقع شمال عرفة بينهما سيل عُرنة يأخذ بعضه حد الحرم،
يتصل شمالاً بجبال الشُّعر جمع شعراء، ثم جبل الطارقي، وتمتد منه إلى الشرق
والشمال الشرقي سهول المغمس.

وهذا عناه أبو خراش الهذلي بقوله: (١٠)
غداة دعا بني جشع وولي يوم الحَطْمَ لا يدعو مجيبا
وبنو جشع أرى صوابها بني جُشَم، لأن بني جشم قبيلة معروفة،

خُم:

بضم الخاء المعجمة، وميم: بئر كانت بمكة. قيل: هي لكلاب بن مُرَّة أبي قصي، وقيل: حفرها وحفر رم، عبد شمس بن عبد مناف، وقال:
حفرت خُمًّا، وحفرت رُمًّا حتى ترى المجد لنا قد تمًّا (١١)
وقيل: خُمٌّ: بئر قريبة من الميثب، وكان الناس يأتون خُمًّا في الجاهلية والإسلام يتنزّهون (١٢).

قلت: خُمٌّ - اليوم - شعبتان جنوب المسجد الحرام على قرابة خمسة أكيال، أو أقل، إحداهما تدعى خُمًّا، والأخرى خُمَيْمًا، تصبان من جبل سُدير، فتجتمعان فتكوّنان رأس بطحاء قُريش، التي تذهب إلى عُرنة.
وفي خُمٍّ مسلك الماء المطر يخرج إليه أهل مكة إذا مطرت متزهين، وعند اجتماع الشعبين توجد بئر كان فيها الماء إلى عهد قريب، ربما هي (بئر خُمٍّ) المنسوبة إلى قدماء قريش. ومن هذا البئر يمكنك أن ترى الميثب مغيب الشمس. وقد أكّدي أحد كبار السن من سكان تلك الناحية: أن البئر تدعى بئر خُم، وكذلك الشعبة التي تقع فيها البئر. والعرب من عادتهم تسمية الشيء بجاره وما فيه، على أني أرجح أنها هي البئر القرشية القديمة، لوجود نظائر ها على أسمائها القديمة.

الخندمة:

بفتح الخاء المعجمة، وسكون النون ثم الدال المهملة فيم فهاء. وقد تجمع



الخنادم: هي سلسلة جبلية خشباء بمكة، تبدأ من شعب عامر قرب المسجد الحرام فتشرق حتى تصل المفجر، وإن كان شرقها يسمى باسم آخر، وفيها اليوم أحياء كثيرة وهي تقابل الحجون من الجنوب، وتمتد جنوباً فيكون نهايتها هناك جبل (سُدَيْر).

قيل: وكان أبو الرِّعَّاس - أحد بني صاهلة - وقيل: حمَّاس بن قيس بن خالد البكري^(١٣) يعد سلاحاً، فقالت امرأته: ما تصنع بما أرى؟ قال: سمعت أن محمداً سيغزونا فهذا له ولأصحابه. فقالت: ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء. فقال: والله إنِّي لأرجو أن أخدمك منهم خادماً، ثم قال: (١٤)

إن يقبلوا اليوم فما بي عِلَّةٌ هذا سلاح كامل وآلُه

وذو غرارين سريع السِّلَّةُ

ثم شهد هذا الشاعر يوم الفتح الخندمة مع أناس جمعهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، فhez مهم خالد بن الوليد، فر منهزماً حتى دخل بيته، وقال لامرأته: هل من محش؟ فقالت: أين الخادم؟ قال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه

لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

قلت: وقوله: فhez مهم خالد بن الوليد، هذا ناتج عما لخالد في نفوس المسلمين من البطولة، فلا يكادون يجهلون قائداً أحدث مثل هذا حتى يتبادر إلى أذهانهم اسم خالد، وهذا وهم، لأن خالداً دخل مع (كُدَى) المعروف اليوم بريع الرسام، وكان سيره على طول الشارع المعروف اليوم بشارع خالد بن الوليد، وفيه مسجد ينسب إليه، وهذا غرب المسجد الحرام، ومعروف أن جيوش الفتح

أحاطت بمكة من ثلاث جهات: أذاخر حيث دخل رسول الله (ﷺ)، وكداء - بالفتح - حيث دخل الزبير وكتائب من الأنصار، وكُدَى - بالضم والقصر - حيث دخل خالد. فاجتمعت في المسجد الحرام. فكيف يقاتل خالد في الخدمة في أعلى مكة؟ لكن هذه فرقة أرسلها الزبير لا شك، للسيطرة على جبل الخدمة المسيطر على كل معلاة مكة إلى المسجد الحرام، وتوطئة لزول رسول الله في الأبطح، ولأن فيلق الزبير يمر بسفح الخنادم فلا شك أن مجموعة صفوان ناوشتهم وهم بين ثنية المدنيين (ربيع الحجون اليوم) وبين المسجد الحرام، فأمر القائد بتطهير هذا الجيب لتخلو معلاة مكة وتأمين.

وقال بُدَيْل بن عبد مناة بن أم أصرم يخاطب أنس بن زعيم الديلي، والدليل من كنانة، رهط أبي الأسود الدؤلي، صاحب الإمام علي (عليه السلام).

بكى أنس رزناً، فأعوله البُكا
فإلاً عدياً إذ تطلُّ وتُبَعْدُ
أصابهم يوم الخنادم فتية
كرام، فسل منهم، نُفَيْلٌ وَمَعْبُدُ
هنالك، إن تسفح دموعك، لا تلم
عليهم وإن لم تدمع العين تُكْمَدُ
... يتبع

الهوامش :

- (١) الأغاني: ٣٣٤٧ ط دار الشعب.
- (٢) أخبار مكة ٢: ٢٧٣.
- (٤ و ٥) معجم ما استعجم (الحجون).
- (٦) العلق: ١-٤ ويعرف اليوم بجبل النور.
- (٧) ٢: ٢٩٤.
- (٨) كذا قال: الحناطين، وهم بائعوا الحنطة، ولكن في الفاكهي (الخياطين).
- (٩) معجم معالم الحجاز، الخطم.
- (١٠ و ١١) معجم البلدان، الخطم.
- (١٢) أخبار مكة: ٢١٤.
- (١٣) كذا في معجم ما استعجم، وفي معجم البلدان: حماس .. الخ (الخدمة).
- (١٤) معجم ما استعجم.